

هؤلاء الطليان في مادة جمعت ألوان الطعام المختلفة الشبيهة في قصر نغم يقف خارجه بعض الأطفال ، وهم يرمقون ألوان الطعام ، ويشتهون أن يتذوقوها وليس لهم إلى ذلك سبيل ، بل ربما لم تتحرك فيهم شهوة لأنهم لا يفقهون ما يرمقون .

سألت نفسي عن السبب الحقيقي في تلك الظاهرة الغريبة ، فعلمت ذلك بأن الإيطالي المستعمر لم يحاول أن يفهم الشعب الأريتري ولم يقدر أنه قد تأصلت فيه ثقافات مختلفة على مر الزمان ، فعامله معاملة الشعوب البدائية وقام بدعايته متمنياً عقلية الشعب الأريتري ضارباً بشعوره وثقافته عرض الحائط ، بل قل لم يفهمها . من ذلك أنك تجد كتب المطالعة الأولية باللغة الإيطالية تجمد على حب إيطاليا وتعظيمها ، وتجد رجال الدين من الكاثوليك يتوددون إلى الشعب بوضع صليب كبير في الكنيسة عليه المسيح مصلوباً في صورة رجل أسود ، وما إلى ذلك . وأما الناحية الاجتماعية فقد نزل الإيطالي إلى ميدان الأعمال اليدوية ، فبعد أن كان الأريتري ينظر إلى الأوربي بعين الاحترام انقلب شعوره إلى ضد هذا حين رأى الأوربي يقوم بتمهيد الطرق والبناء والحمل وجر العربات وغير ذلك . هذا ، وبالرغم من أن الحكومة الإيطالية كانت تحرم على الطليان الاختلاط بالأهالي فعمدت في سياستها إلى تقسيم الأحياء والمناطق والمواصلات إلى قسمين : قسم للطليان وقسم للأريتريين ، سقطت هذه القيود ، إذ سقطت أريتريا وأتيوبيا من يد الطليان ، فكنت ترى الأتيوبي أو الأريتري يستخدم الإيطالي . وقد انقلبت طبقة المحكومين إلى طبقة حاكمين ، والحاكمين إلى محكومين بين عشية وضحاها ، والطليان راضون بهذا قانعون . بل كنت ترى أكثر من هذا ، ترى فئة من الطليان وقد تزوجوا من أتيوبيات أو أريتريات أو اتخذوا منهن خليلات ونزلوا إلى المستوى الذي يعيش فيه هؤلاء النساء فعاشوا عيشتهم وشكروا مساكينهم . وقد كنت أذكر هذا لصديق من الفرنسيين ، فدهش وقال إن هذه الحال وما يماثلها قد شاهدناها أيام كان الطليان وعرب شمال أفريقيا يعملون معاً في فرنسا إبان الحرب العالمية الأولى ، بل قد أذهلنا أن نرى أهالي شمال أفريقيا من العرب يعنون بلباسهم ومسكنهم وتعليم أبنائهم على خلاف زملائهم الطليان الذين لم يوجهوا أى اهتمام إلى تعليم أبنائهم فضلاً عن رفع مستوى معيشتهم . تلك ظواهر في أخلاق هذا الشعب لمستعمر جعلته يخفق في حمل الثقافة والحضارة إلى الشعب

الأريتري الذي يحفظ بين طبائمه ثقافة مصرية متمكنة ، تلك الثقافة التي جعلته يثبت أمام الجهود الثقافية التي ركزها الطليان في الدعاية لحب إيطاليا أو التي ركزوها في الدين منذ احتلالهم للبلاد ، والتي كانت مظهرها الدعاية للمذهب الكاثوليكي . وليس أدل على الإخفاق من عدد الذين قبلوا اعتناق الكاثوليكية من بين الأريتريين . وأما مظاهر المدينة التي تراها في أريتريا فهي لصالح المستعمرين لاستغلال البلاد إلى أبعد حدود الاستغلال .

الدين : دخلت المسيحية أريتريا على يد فرومونتوس في القرن الرابع الميلادي حين رست به السفينة في ميناء عدول ، فأمكنه أن يدخل المسيحية في المراكز التجارية أولاً حيث يكثر الأجانب من مصريين ويونان نزحوا من مصر ، ثم عاد فرومونتوس إلى مصر حيث رسمه البطريرك القبطي مطراناً على تلك الجهات (أي الحبشة) والمقصود بها أريتريا الحالية ومقاطعة التيجري تقريباً . ويقوم المسيحيون في أريتريا شعائرهم الدينية حسب طقوس الكنيسة القبطية . ويلاحظ في القداس استعمال السيستم والطل . وهم يتبعون مطران الحبشة من الناحية الدينية . وقد حاول الطليان أن يستقلوا بالكنيسة القبطية في أريتريا ولكنهم أخفقوا في ذلك ، إلا أنهم استطاعوا بعد أن استولوا على أتيوبيا أن يفصلوا الكنيسة الحبشية عن القبطية في ديسمبر عام ١٩٣٧ ، فعينوا بطريركاً حبشياً مركزه أديس أبابا ، فصارت أريتريا تابعة لهذا البطريرك . ثم عادت الحال إلى ما كانت عليه بعد رجوع الإمبراطور إذ أصبح الرئيس الديني لأريتريا المطران القبطي الموجود في أديس أبابا . غير أن التطورات الأخيرة بين الكنيستين القبطية والأثيوبية قد غيرت الموقف . فقد وافق المجمع المقدس في مصر على أن يرسم على أتيوبيا مطران أثيوبي ، ولم يتعرض القرار للصلة الدينية التي بين مصر وأريتريا . ويخيل إلى أن هذه المسألة لم توجه إليها العناية الحريية بها . ومما يذكر بعد هذا أنه كان لأريتريا أسقف يرسم من الأقباط إلى عهد قريب ، وكان يساعده في تأدية مهمته عدد من الرهبان الأقباط يحملون معهم ثقافتهم المصرية العربية ، وقد أخذ عدد هؤلاء الرهبان يتضاءل منذ الاحتلال الإيطالي لتلك البلاد إذ لاحظ الطليان خطرهم الثقافي . وقام الطليان ببناء أسقفية كاثوليكية كبيرة في أسمرا محاولين بذلك منافسة المذهب الأرثوذكسي من جهة والتأثير

في الناس بالمظهر الخارجي للدين من جهة أخرى ، وقد ذكرنا أنهم أخفقوا في ذلك . ويبدو لي أنه قد حان الوقت الذي يجب أن ترسل فيه مصر إلى أريتريا أسقفاً مصرياً يكون تابعاً للبطريرك القبطي مباشرة أو للمطران الأثيوبي ، ويحسن أن يصحب هذا الأسقف عدد من الرهبان والقسوس المصريين المتعلمين ليكونوا يداً تساعد على استمرار الثقافة المصرية المتمكنة في نفوس الأريتريين بل على إحيائها ، وخاصة بعد أن ثبت إخفاق الثقافة الإيطالية هناك .

وهناك تيار آخر حمل الثقافة المصرية إلى تلك البلاد . فقد قامت الدعوة للدين الإسلامي منذ ظهوره ، فاعتنقته القبائل التي تسكن شواطئ أريتريا ، ثم انتشر بين بعض القبائل الناطقة بلغة التيجري وفي جزء من قبيلة البلين وفي معظم البجة وكذلك في كل القبائل المتفرقة المسماة جبرت وقبيلتي الدنا كل والساهو . ومسلمو أريتريا من السنين ، وهم على المذهب المالكي أو الشافعي . وهناك من الطرق الصوفية : الميرغنية ومركزها مصوع وكيرين ، والقادرية وهي منتشرة بين القبائل البدو ، والسمانية في جبرت ، وكذلك الأحمدية والصالحية ، وتقل الشاذلية والرفاعية والحداية والتيجانية . وقد حمل المسلمون في أريتريا ثقافة مصرية أتهم عن طريق اختلاطهم بالسودان وكذلك عن طريق الأريتريين الذين يتعلمون في رواق الجبرتي في الأزهر ثم يعودون إلى بلادهم حيث ينظر إليهم بعين التقدير والتعظيم .

ولكن جهود مصر في تنظيم هذه الثقافة التي استمرت طوال هذه الأجيال قد ضعفت أو هانت ؛ فطلبة رواق الجبرتي مثلاً في حاجة إلى تشجيع حتى يحملوا هذه الثقافة صادقة كاملة إلى مواطنيهم ؛ وإنك لتلمس استعدادهم في هذا المسأ يدعو إلى الاطمئنان .

العادات . يسترعى نظر المصري في تلك البلاد إما عادات غريبة عنه وإما عادات مماثلة لما ألفه . فما يستوقفه تسمية الأشهر العربية هكذا : رجب — مداجن — رمدان (أو صوم) — فطر أول — فطر ثاني — حج أول — حج ثاني — شفر — ربيع أول — ربيع ثاني — جماد أول — جماد ثاني . وهم لا يتزوجون في رجب ومداجن ورمدان وشفر لأنها أشهر فردية ، وقد يسمح لمن أراد أن يتزوج على وجه السرعة في هذه الأشهر على ألا يكون له إخوة .

ولا يكون الزواج إلا في الأشهر الزوجية وهي الأفاطر والحاجاج والاربعات والأجدات ، كما يسمونها .
والختان معروف عندهم ، فهو للذكور والانات عند المسلمين والمسيحيين على السواء .

وترى الصبيان يخلقون شعورهم بعد أن يتركوا خصلة من الشعر إمامي وسط الرأس وإما على جانبيه وإما مثل عرف الديك أى من مقدم الرأس إلى آخره ، ولكل شكل منها اسم في لغتهم ، وهذا يعائل ما نسميه في مصر بالشوشة والقصة والزعرور وغيرها . ويخلق كذلك البنات شعورهن بعد ترك خصلة من الشعر على الرقبة أو على السوالمف أو حول الرأس أو في مقدم الرأس وفي آخره معاً ، وتعرف الأبقار بترك هالة من الشعر على رءوسهن بعد حلقه .

وللأريترين معتقدات في قوة الشعر السحرية ، لذلك يجمعون شعرهم بعد قصه أو حلقه فيخفونه تحت شجرة أو في مكان أمين ، خوفاً من أن تذهب به الريح أو يطأه إنسان فيتلف نمو الشعر أو يفقد صاحبه عقله « ينشعر » أو تشتت أسرته كما تشتت شعره . ويعتقدون أن الحظ يأتي من الشعر فيقولون في تعبیرهم : هذا شعره سعد وذاك شعره نحس .

وهم يحتفظون بأظافرهم بعد تقليمها فيدفنونها خوفاً من أن يسألوا عنها يوم الحشر .

وترى الطفل إذا سقطت سنه أخذ قطعة من الصوان وقطعة من الفصح ورماهما مع سنه وهو يقول : أيها الضبع خذي سنى الجميلة وأعطني سنك القبيحة . وهذا يذكرنا بما يقوله الأطفال في مصر : « يا شمس يا شمسه ، خذي سنة العروسه ، وهات سنة الجموسة » . ولهم في ما كلهم عادات غريبة . لا يأكلون الأرنب ولا قلب الحيوان ، ومنهم من يحرم أكل لسان الحيوان أو رثته أو معدته . ويختلف المسلمون والمسيحيون في ذبح الحيوان ، فيوجه المسيحيون رأس الحيوان عند ذبحه صوب الجنوب كما يتوجهون في صلاتهم ، ولا يأكلون ذبيحة المسلمين كما لا يأكلون لحم الجمل أو الجراد .

أما المسلمون فيوجهون رأس ذبائحهم جهة الشمال الشرقى أى جهة القبلة ، ولا يأكلون ذبيحة المسيحيين ولا لحم الخنزير . وقد قلت لأحد فقهاءهم إن تحريم ذبيحة المسيحيين يخالف الشرع الاسلامى ، وإن الآية صريحة في سورة المائدة

«أيوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم» فقال إننا نعتبر المسيحيين هنا مسلمين قد ارتدوا؛ لذلك لا نخالف الشرع إذا لم نأكل ذبائحهم.

ويصنع الأريتريون خبزهم من الذرة أو القمح أو الشعير بدون خميرة على الطريقة المعروفة عند البدو في مصر، فيعجنونه على قطعة ملساء من الحجر أو قطعة من الجلد أو الخشب. وهم يصنعون الخمر إما من الشهد وإما من الذرة أو الشعير ولهم تقاليد معقدة في حالات الموت: فهم يندبون الراحل بالطبل والرقص ويعددون صفات الميت، ويختلف المآتم باختلاف مركز الميت وسنه. وقد ذكر لي بعض الأريتريين أن الرعاة إذا مروا بمقابر يلقون عليها بعض الطعام واللبن على ثلاث دفعات، وإذا مروا على مقابر أقاربهم يحملون البقرة ويلقون ببعض لبنها على القبر ذاكرين اسم الراحل ثم يشرب الأطفال ما تبقى من اللبن. وهم يكررون حلب البقر على حسب عدد الراحلين ثم يذكرون في كل مرة اسم الراحل. ولست في حاجة هنا أن أبين مدى اعتقاد الأريتريين في الأحجية والسحر والسحرة. ومما يلفت النظر أسماء الناس فلكل اسم معنى، وتغلب على الاسم صيغة الجملة فتسمع بين أسماء الأعلام المذكورة: «حوار شيك» أي حمار الشيخ، و«اتجاوها» أي أتى في الفجر، و«هامرا باي» أي أضعف الأعداء، و«هارابا» أي أطعم الغريب، و«جيب» أي غطاء (الأم) و«هاداما» أي هرب (الأعداء) و«بديهو» أي لقياء. ومن بين الأعلام المؤنثة «أرهبت» أي أراحت «وقربا» أي سعيدة. وقد ذكروا لي أن الأم تطلق عادة على كل من أولادها إسماً ثانياً يكون صفة.

والشعب الأريتري على اختلاف قبائله شعب فيه أمانة مشهورة، وتقوى في العبادة، وهدوء في الطبع، وصدق في المعاملة، وإخلاص في العمل. وأشكالهم في جملتها لطيفة: وجوههم سحمة، ولون بشرتهم أسمر مشرب بحمرة، وأجسامهم مستوية. وقد اشتهرت نساء قبيلة بليين بجهاهن، وتراهن يسترن النصف الأسفل من أجسادهن بقطعة من قماش ملون يضممها حول خصورهن. وتسير المرأة من نساء البليين بخطوات هادئة رزينة متناسقة، وهي نفور بجسمها النحيل السمهرى المستقيم كالتمثال المنحوت، وذراعاها سبطتان، وخصرها لا يتحرك في سيرها ولكنه بعيد عن الجمود. وملامح وجهها مستوية رقيقة فيها خفر يضم

سر الجاذبية غير المتكلفة . وقد قال لى أحد أدباء الطليان هناك إن مملات السينا في هوليود يمكنهن أن يتعلمن من نساء البلين الكثير من سر الجاذبية الجنسية .

الأدب الشعبي : يفرم أهل أريتريا بالأحاجي « والفوازيير » . وهذا يندر في لغات أتيوبيا ، ولكننا نعهد مثله في مصر . ولهم غرام أيضاً بقصص الحيوانات أو بشرح الأمثال على ما هو معروف في الأدب العربي . فعلى مقربة من مصوع جبل منفرد على الشاطيء اسمه جادام . ويقول أهل أريتريا إن الجبال أرادت أن تعقد مجلساً فقالت لنذهب إلى الشاطيء ، ولما هموا بالذهاب سبقهم إلى ذلك جبل جادام ، فوصل بمقدمه إلى البحر فطنى عليه وكان مؤخره لا يزال ثابتاً في الأرض ، فلم يتمكن الجبل من الحركة ، فصاح بزملائه : ليقف كل منكم في مكانه فوقفت حيث تراها إلى اليوم ؛ ولذلك تجد جبل جادام يسبق الجبال إلى الشاطيء . يقولون في الأمثال : « لا ترتكب خطأ فإنه يجب أن يقف كل في مكانه كما قال جبل جادام » ويقال أيضاً : « أخطأنا كما أخطأ جادام » .

أما قصص الحيوان عندهم فلا تخلو من مغزى اجتماعى أو سياسى . وإليك مثلاً قصة قصيرة : « يحكى أن رجلين التقيا على قارعة الطريق فتبادلا التحية ، وسرعان ما وضع حمار كل منهما فنه على فم الآخر ، فاستغرب أحد الرجلين وسأل الآخر عن سبب ذلك ، فقال له إن الحمير أرسلوا حماراً قويا إلى الله عز وجل ليحمل شكواهم ويخلصهم من نير الانسان ، لذلك يتساءل الحمير كلما تلاقوا أرجع رسولهم أم لا . المغزى : أن كل مخلوق يتطلع إلى الحرية . وأما غرامهم بالشعر فعظيم ، وهم يعرفون من أنواعه الرثاء والغزل والمدح والهجاء وشعر الحوادث السياسية . وإليك بعض ما قاله شعراؤهم في المصريين .

فهذه مقطوعة شعرية نظمها رجل ثرى من أهل أريتريا أيام حكم الرأس ألولاء وقد قبض عليه الرأس ووضع في الأغلال ولكنه هرب ، وقد تحير إلى أى الفريقين ينضم : الأحباش أم المصريين ، فقال يناحى ابنه موسى ويذكر له أنه سينضم إلى المصريين :

« يا موسى يبحثون عن أبيك كل يوم
يقولون لك هو سجين يصفد في الأغلال

يقولون لك قد قتل وطعن بالخناجر
إن أباك ذاهب إلى جندار مع الخيول الصهباء
إن أباك ذاهب إلى مصر مع السودان الأجماد . »

ثم هذه قصيدة أخرى نظمت أيام كانت قبائل التيجرى موزعة بين الأحباش
والمصريين ، وكان الشاعر مع المصريين يعمل في حصن كيرين ، وكان له صديق
انضم إلى الرأس أولا ، فقال الشاعر القصيدة يخاطبه ، وهو يمتدح المصريين
ويذم الخصم ، ثم يشير إلى ضعفه إذ لا يستطيع أن يثار من أهله ويناقض شاعره
ثم يرد التهمة الموجهة إلى خطيبته :

« إن سيدى حاكم مصوع والمكوس (الجمارك)

أما سيدك فخدأة على الشجرة

إذا طارت خطفت المصارين والأحشاء

قد تركتم لنا من الفزع قبائل المنسع والهيجات

وكل من تركهم «أولا» خلفه نحكمه نحن

ماذا يعطيكم لنا كلوا سوى الخبز وحده !

يقوم بيني وبينكم بحر واسع

فسيدي يعطى الكساء الجديد إذا بلى القديم

ويجزل العطاء فيملاً يدي بالنقود

متى قلت إني عريان أو إن لباسي ممزق .

هل آخذ ثأري منكم أو أتركه ؟

تعال إلينا فنحن أثرياء

فحياة سيدي لا تقدر فضلا عن سخائه

إن ثأري جائع لكنه لا يرغب في الطعام

إن ثأري ظمان لكنه يأبى الارتواء

لا يخرج ثأري إلى أبعد من الكلام إلى الناس

ثأري ضعيف لا تقوم له قائمة

فالضعيف يتكلم حين لا يسمعه أحد

يقولون (أى أصحاب الرأس أولا) إني سكران كافي ثمل من الخمر

يقولون إني مجنون كأني اقتحمت منازلهم

ولكنهم خاطئون فلم أشرب الخمر ولا طرقت منازلهم

بلغ سلامي يا صديقي إلى الجببية إذا مرت بها

ليس جماها الذي أعلني وأسقمني

بل كما لها في قولها وتماها في فعلها

ليست عبدة بشعر مجعد سلاحها الكذب

ليست بغيًا تجلس أمام كل بيت

إذا أحبت رجلا أنفت مطارده

وإذا لم تحب الرجل رفضت جميع ماله

هم يقولون إنها بنى كذبا وظلما

إنها قابعة في دارها في عيش رغد

أنا مطمئن إليها واثق بها

لذلك أنا ذاهب الآن إلى عملي في الحصن حيث الضباط .

مراد لأملي